

نشأة النطق بالكلام

وعرفته بأصل اللغة وتطورها ولهاجتها

للأستاذ إبراهيم إبراهيم يوسف

مقدم

وأكبر ظنى أن كانت العربية لذلك العهد قد تبلورت وصارت أكثر ما تكون قرابة للغة الأدب التي ورثناها إياها التاريخ . فزت على القوم أن تصاب لغتهم بذلك الذى توقعه أهل رأى عندهم . ومن ثم قام أجلّهم يحاطون الأمر ؛ وذهب نفر من علمائهم إلى وجوب وضع دساتير للغة تحميها شر عدوان الزمن ، وتحفظها على طول الأمد ، وما إن استقر رأى على هذا ، حتى بدأوا العمل به . فكانت هذه فيما أرى ، البداية المباركة فى وضع

علوم اللغة للسان العرب

وإذا ، فقد نشأت هذه العلوم فى كنف من النموذ ، يحجبها عنا عصر خفى علينا زمانه ، واختفى معه كل أثر لمحاولات الأئمة الأول ، تلك المحاولات التى انتهت بهذه الدساتير السوقة إلينا من نحو وصرف وإعراب وغيره

وكان من الطبيعى أن يجر البحث فى وضع دساتير اللغة إلى محاولة التفلسف فيها . وهكذا كان شأن علماء العربية ، إذ نجد أن بعض الباحثين من علماء العصر الأول الإسلامى لهم فيها مسائل ، ومن بينها مسألة النطق بالكلام . وهذه المسألة إذا ، ليست وليدة الأبحاث العلمية فى علوم اللغة لعصر من العصور الحديثة ، كما يزعم الراعمون من رجال العلم فى الغرب ، بل هى — على حد ما وصل إليه تحقيقنا — مسألة ترتق عند أبناء العربية

أتى على موطن العربية حين من الدهر ، خفى علينا ميقاته ، تضافرت إبانها عصبية من العوامل الاجتماعية القاهرة ، فقتت على أبناء العربية قسوة كان من بعض شأنها أن أخرجت فريقاً منهم من ديارهم ، بضربون فى الأرض ، يقتلون مواطنين جديدة ويسرون فى كل صوب زراقات ووحداناً مهاجرين ساعين فى طلب الرزق . والرأى عندى أن تباعد هؤلاء وتناهبهم عن ديارهم ، وتفرقهم وتشتتهم فى أمتاع مختلفة ، قد حفز الأكثرين نظراً فى مواطن أمورهم إلى البحث فى مآل اللغة التى يتفاهمون بها ، فتبين لهم أن الدهر سوف ينال منها مثلاً إذا ما تركوا أمرها للقدر ، وأن لا عاصم لها من قسوته إذا ما تقاعسوا عن تحصين جزئياتها وكلياتها ، وأن لا مناص من أن تستر معالمها ، وتنتكر معارفها ، وتبليبل ألسن الناطقين بها يوم يخذلونها .

بإتمام العبادة عبادة ، والفرح بقهر الشهوات عبادة ، والفرح بالتغلب على الشيطان وجنده عبادة .

هذا المعنى فى العيد يسمو بالعيد عن العبث ، ويجمله معنى سامياً يوحى إلى النفس معنى العزة بالنفس ، ومعنى القوة والقلبة ، ومعنى العظمة والانتصار ، يوحى إلى النفس معنى قوة الإرادة ، ويوحى إلى الناس معنى تثبيت إنسانيتهم ، وأنهم خرجوا عن الأفق الذى تملكهم فيه شهواتهم إلى الأفق الذى يملكون فيه شهواتهم . والنفس إذا أوحى إليها بما فيها من معان سامية ازدادت فيها رسوخاً ، وحفرها هذا إلى تحصيل غيرها من الخلق الفاضل الكريم أرايتم كيف كان العيد معنى إنسانياً سامياً بعد أن كان

أمرأ حيوانياً ضئيلاً جافاً لا حياة فيه ولا روح ؟ أرايتم كيف صار شيئاً نافعاً مفيداً . يوحى إلى النفوس معانيها من القوة والنصر على الأعداء ، والارتفاع عن أفق الحيوانية المحدود ، بعد أن كان شيئاً مغسولاً من النفع والسمو والخير والإفادة ؟ إنما العيد عيد المجاهدين الذين جاهدوا فى الله حق جهاده ، فانتصروا على النفس والشيطان ؛ أما هؤلاء الذين غلبتهم أنفسهم وشهواتهم ، وأخذوا إلى الأرض ، فليس لهم منه إلا المم والحسرة ، لأن الناس خرجوا منه أقوياء منتصرين ، من حيث منوا هم فيه بالضعف والهزيمة وبالارتكاس والخذلان .

محمد هرفه

ما أثير من قوله تعالى : « وعلم آدم الأسماء كلها » . فذهب جماعة من أهل السنة إلى أن لغة العرب توقيف ووحى . واتفق آخرون من أهل النظر ، وأكثرهم من المعتزلة ، على أن أصل اللغة إنما هو تواضع واصطلاح ، وجرم هذا الخلاف في الرأي إلى النظر في أمر وضع اللغة وأوليئها ومنشأها . وسلوكوا في ذلك مذاهب ؛ فالترمت فئة منهم التحقيق العلمي لا تميل عنه في أبحاثها ، واستسلمت فئة أخرى إلى ظنون تموزها الأدلة ، فراحت تستجدي من الدين المعونة . وكان كلما اتسع الخلاف في الرأي على هذه المسائل ، كان الاقتراب من الحقيقة أدنى . وكان هذا أقرب للوقوع كلما أحيطت حرية الرأي بسياس من الضمان يكفل ازدهارها . ثم صار ذلك الضمان دستوراً نافذ المفعول للدولة الإسلامية . إبان سؤدها . وبقيت حرية الفكر قائمة ، مدعمة من الجميع ، مكفولة للجميع ، فأينعت علوم الدين وعلوم الدنيا . وكانت علوم اللغة إذ ذاك مشاعة بين هذه وتلك . فعلماء الدين يعتبرونها من نصيبهم ، إذ هي دعامة تفهم الديانة . وعلماء الدنيا يمدونها حقاً من حقوقهم ، إذ هي مفتاح سائر العلوم . وهكذا فازت اللغة بما لم تحظ به بقية العلوم ، إذ ارتشفت عصارة فكر الفريقين جميعاً

إلا أن هذا التفاهت على خدمة اللغة أصبح لا وجود له ، بعد أن فشا استبداد الرأي في الحكم والعلم ، وضاقت النطاق على حرية القول والفكر . فكان ذلك إيذاناً بانتهاء العصر الذهبي للغة العربية . وما كان ذلك ليوقع إلا ويختفي بوقوع أعمال رهط من جهابذة علماء اللغة . لحيل بينها وبين الظهور أعماراً عديدة ، أو هي اندثرت إلى غير بث أو نشر . ومن ثم ضاع الكثير من الدرر الغوالي التي ازدانت بها مصنفات اللغة في العصور الإسلامية المتقدمة ، كما ضاع غيرها للعصر الجاهل . ولا عجب وقد تمثل لنا بعض ما أصاب لغتنا ، أن يتفق الرأي ، عند أهل التحقيق من أصحاب علم العربية ، على أن الذي انتهى إلينا من كلام العرب هو الأقل . وما كان هذا الحال ليقعد علماء العربية عن واجبهم ، أو ليدفعهم إلى شيء من التفريط في أمانتهم التي تشرّفوا بحملها . فظهر منهم في العصور المتأخرة عدد من المجتهدين أرادوا بعلوم

إلى أول عهدهم بالقرآن الكريم ، حين أقبلوا على تفسيره ودراسته دراسة لنوعية توطئة لفقه دقائق ما جاء به . بل ومن المحتمل غاية الاحتمال أن تكون هذه المسألة أبعد غوراً مما ذكرنا وذلك استناداً إلى ما وضح لنا من أن نشأة علوم اللغة قد سبقت العصر الإسلامي ، وأن التفلسف فيها كان ملازماً لنشأتها . وقد يصبح هذا الاحتمال يقيناً لا مرية فيه ، حين تتجه الأبحاث العلمية إلى تحقيق تاريخ وضع دساتير اللغة ، وتنتهي إلى ما نظمنا إليه في هذه الناحية

وسواء أحمحت هذه الدعوى الثانية أم لم تصح ، فليس هذا الذي قام به أفاضل السليمن الأول من تفلسف في الأبحاث اللغوية بالأمر اليسير الشأن ، ولا هو بالسكت أكثر عليهم . فالعرب ، وشاركهم في ذلك أبناء الصين ، يفضلون في رأى جمهرة اللغويين الحديثين ، بقية الشعوب بزعمهم إلى التفقه في اللغة . وهذه النزعة هي التي حثتهم على الهوض بالدراسات اللغوية نهوضاً مبكراً ، تجلّى أثره في وفرة ما صنفه العرب من كتب ورسائل في علوم اللغة ، كما تبين خبره في كثير مما تفرق لهم من أبحاث في مختلف مسائلها جاءت ضمن عدد آخر من موسوع مؤلفاتهم . وليس يفرىب — وهذه حالهم — أن نجد في بعض مصنفاتهم الخاصة بعلوم اللغة ، وكذلك تلك التي لها بعلوم اللغة صلة ، نزعة فلسفية واضحة

ويمكننا القول ، استناداً إلى ما وسعته المكتبة العربية من مصنفات وصلت إلينا ، أن الفخر الرازي كان أول من تعمى آراء المتقدمين ، وذهب إلى نقد فريق ممن تفلسفوا في هذه المسائل . وأن السيوطي كان أول من عنى من المتأخرين بإيضاح هذه الناحية ، وعمل على بسط آراء من تقدموه بسطاً مجللاً . وأن جولد تسهر كان أول من اهتدى من المستشرقين إلى هذا . فلما أن وقف الفرييون على مجرى تفكير العرب هذا ، أكبروا فيهم تفقههم المبكر في اللغة ، ودهشوا لعناية العرب بهذا الضرب من التفكير الفلسفي ، قبل أن يتقدم إليه أسانذتهم اليونانيون في الفلسفة

ولعل الذي حدا بالعرب إلى هذا النوع من التفكير الفلسفي

اللغة خيراً ، فعمدوا إلى ماورثته لنا أسلافنا الأول ويدون تميمته وتمزيقه . ولكنهم أبوا أن يساروا الزمن فيما تطورت إليه العلوم ، وما استنبط من ظرائق ووسائل للقيام بأبحاث علمية ، اهتدى إليهم المفكرون في الأمم النابهة ، فأصابهم ما أعجزهم عن متابعة السير ، وبقيت علوم اللغة حيث كانت .

والآن ، وقد أصاب العربية الفصحى ما أصابها ، وأدركها الركود ، فباعد بينها وبين أن تبقى بمحاجات الحياة في العصر الحاضر ، أو تبقى بمطالب العلوم والفنون في تقدمها المطرد ، فلا سبيل لإحيائها إلا بإتجاه نهج علمي غير الذي سار عليه التأخرون من أبناء العربية إلى اليوم . وهو وإن يكن في مجموعه جديداً بالنسبة لنا ، فقد سبقنا إليه أمم الغرب وبعض أمم الشرق ، فجدت طلائع علمائهم في دراسة لغاتهم ، وعكف نفر منهم على دراسة لئتنا على أساس من العلم صحيح . وكان أن وفقوا إلى استنباط علوم جديدة يستكملون بها علوم العربية ؛ فأفردوا لكل من اللهجات والأصوات والدلالات اللفظية والمفردات وتشكل الكلمات والأساليب علوماً قائمة برأسها ، ثم ربطوا هذه العلوم بعضها ببعض . والتزموا فوق هذا وذاك دراسة جميع اللغات الشرقية وغيرها مما له بالعربية صلة ، وذلك توطئة للدراسة النحو الفان للغات السامية ، وتوصلاً إلى معرفة أصل الكلمات ونسبها . وفي ذلك كله تفسير لمعرفة التطور التاريخي لمعاني الكلمات ، وتذليل لمعرفة التطور العام للغة . وما كان لهؤلاء الأجلة من العلماء ليتجشموا كل ذلك الذي وجب علينا أن نتجشمه ، إلا ابتغاء الكشف عن أسرار العربية والتشبع بروح هذه اللغة الشريفة . ولكن قد لا يتنبأ لنا ولهم الاستفادة من هذه العلوم ، استفادة ترضى الوجه الصحيح من البحث العلمي ، حتى يخرج لنا المحققون غنم ما صنفه الأقدمون في علوم اللغة ، وفي سائر العلوم التي لها بالعربية صلة ، وذلك من عالم المخطوطات إلى عالم المطبوعات ، على أن تكون طبعا علمية صحيحة ومن ذلك كله يتضح لنا أن هذا النهج رغم وفرة لا مفر من انتهاجه . وإنه وإن يكن نهجاً وعمر المسالك كثير الشعب ، إلا أنه كفيل بإحياء العربية والمدة في عمرها أبد الآبدين . فلذا ما سمحت عزيمتنا على السير فيه أدبنا للعربية أجل خدمة ترمي لها في وقتها هذه . ولا شك أن حب اللغة ، ذلك الحب الذي يفضل به

الإنسان الحيوان ، سوف يسر لنا هذه المهمة الشاقة فيدفعنا إلى تحقيقها دفعا في عزيرة صادقة ثابتة ، وبنفس راضية مطمئنة .

وحين يعمل علماؤنا على أداء هذه الرسالة يتبارون ضمتا في إشمال جذوة الثقافة بين أبناء العربية ، ويساهمون فوراً في تفجير نهضة صحيحة . وقد ثبت أن لا قيام لنهضة فكرية ما لم تبدأ بإنهاض اللغة وقد أدرك القداى من أهل التحقيق ذلك ، إذ قالوا : لا نعلم عراض الدين والعلم والأدب إلا بطول عمر اللغة . نعم ، ولكن لا بطول عمر اللغة حتى يحال بينها وبين اكتها لها فشيخوختها ، ولا يقها شر الشيخوخة إلا ضمان فتوتها ، ولا بقاء لفتوة إلا مع التجديد ، ولا يكون التجديد حتى يدرك تطورها ، ولا تطور يرجي حتى يتبين أصلها ونشأتها ، ولا تعرف لها نشأة حتى نهتدى إلى نشأة النطق بالكلام . وهذا ما أرجو أن أحاول بحثه في غير إطالة متوخياً عقده في فصول متتابعة .

إبراهيم إبراهيم يوسف

مساعد الأستاذ أ . فيشر

بمجمع فؤاد الأول لفة العربية

قريباً يظهر

العدد

الأول

الثنى ٥٠ ملياً

اقرأ

سلسلة من الكتب القيمة في مختلف أبواب الأدب والقصص والتاريخ والسياسة والفلسفة تظهر شهرياً في حجم واحد للجيب مطبوعة طبعا أنيقاً يشترك في تأليفها طائفة من أشهر الكتاب في مصر وسائر البلاد العربية

نصدرها مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

بمساواة الأساندة

المرتكر لـ مبيع بك وأنظروه الجليل بك

رهباس لمرور العقاد وفؤاد صروف